الفصل الأول

نبذة عن تاريخ الدولة العثمانية

الـترك أو الأتـراك أو التركمان، كلها تدل على نفس القبائل، وموطنهم الأصلي وسط أسيا، وقد تدفق الأتراك إلى أراضي الدولة العربية الإسلامية من خلال موجات متتالية، منها ما جاء في شكل غزو أو هربًا من المغول، ومنهم من جاء ضمن تجارة النخاسة مثل المماليك، ومنهم من استطاع إقامة دولًا إسلامية قوية مستقلة كالسلاجقة والعثمانية وغيرهما.

على أي حال، ما لبث أن حل القرن الرابع عشر الميلادي إلّا وكانت معظم قبائل الأتراك قد دخلت في الإسلام، وشهد الأتراك تطورات سريعة ومتلاحقة ومواجهات عديدة ضد المغول أو الصليبيين أكسبتهم خبرات سياسية وعسكرية وكان قطف ثمرة هذه الجهود من نصيب عثمان بن أرطغرل الذي استطاع توحيد

جمع كبير من الأتراك تحت سلطانه، ثم بدأ السير بخطى سريعة نحو إقامة كيانهم ودولتهم مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

ركز آل عثمان بدأ من أورخان بن عثمان و مراد وبايزيد الأول بن مراد جهودهم داخل الأناضول، وفي نفس الوقت العمل على خلق رأس جسر لهم على الشاطئ الأوروبي المواجه بدخولهم (غاليبولي) سنة 1358م، لتكون هذه هي النقطة الرئيسة لآل عثمان ليس فقط للاستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان، بل والاطاحة بالدولة البيزنطية بخنق عاصمتهم القسطنطينية.[1]

بعد أن استقرت الأمور للدولة العثمانية على أطراف أوروبا، تطلع سلاطين الدولة إلى فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، والتي كان فتحها حلما يراود كل من حكم دولة الإسلام في كل عصر وكل مصر.

استطاع السلطان العثماني محمد الثاني والذي لُقِبَ بالفاتح أن يهزم الدولة البيزنطية المدعومة من أوروبا كلها ويدخل القسطنطينية منتصرًا فاتحًا بعد أن ظل محاصرا لها مايقرب من ثلاثين يوما في مايو سنة 1453م.

1- الدولة العثمانية والعرب - د. عبد الحليم علي -دار الثقافة العربية ص25

كان هذا الفتح فتحًا عظيمًا ترتب عليه نتائج أعظم، وقد أصبحت الدولة العثمانية هي حامية العالم الإسلامي بل والقوة العظمى في العالم، واستطاعت أن تتوغل بالفتوحات في أوروبا وتحديدًا في منطقة البلقان وضمت البوسنة وحاصرت بلغراد وسقطت أثينا.

كانت هذه الانتصارات التي حققها العثمانيون والمكانة الرفيعة التي وصلت إليها دولتهم، في نفس وقت ضعف وانهيار دولة المماليك، وأصبح يقينًا عند الجميع أن الدولة العثمانية قادمًة لا محالة لبسط نفوذها على كل العالم الإسلامي، بل وضم إليها المزيد من المساحات الجديدة كالأناضول والبلقان.

اذا تتبع الباحثون تاريخ هذه الفترة، وبعد إتمام الدولة العثمانية سيطرتها على الأناضول والبلقان، لم يعد أمامهم الا الاتجاه بالغزوات نحو الشرق،فرغم انتصارهم في القسطنطينية (الآستانة – استنبول)، إلَّا أنهم أدركوا صعوبة الاتجاه غربًا لتفوق الغرب الأوروبي عليهم علميًا وحضاريًا مما سيكون له أثر على القوة العسكرية.

وقد أدى اتجاه الدولة العثمانية بغزواتها نحو الشرق إلى الاصطدام بالدولتين الصفوية والمملوكية حيث:

- **الصدام العثماني الصفوي:**

بعد أن تربع سليم الأول على السلطنة سنة 1512م، أدرك أن دخول الصفويين بغداد سنة 1508م، يعني مزاحمة الدولة العثمانية سياسيًا بل ودينيًا، باعتبار الصفويين شيعة بينما العثمانيون على المذهب السني، فضلًا عن زعامة المسلمين من ناحية المبدأ خاصة عندما قرر إسماعيل الصفوي نشر دعوته الشيعية شرقي الأناضول، وهي أراض عثمانية.

قرر سليم الأول التقدم نحو فارس والزحف باتجاه تبريز عاصمة الدولة الصفوية، فتصدت له القوات الصفوية عند سهل جالديران 1514م، فهزمهم سليم، واستطاع إسقاط الدولة الصفوية والسيطرة على أملاكها.

- **الصدام العثماني المملوكي:**

على النقيض من العلاقة العثمانية الصفوية، كانت العلاقة بين المماليك والعثمانيين في بداية الأمر علاقة طيبة وعلى هذا شواهد كثيرة، منها احتفال المماليك بالفتح العثماني للقسطنطينية

وإقامة الاحتفالات في القاهرة لذلك، كذلك فإن الدولة العثمانية أمدت المماليك بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية ضد غريمهم البرتغالي في موقعة ديو البحرية سنة 1509م.

يبدو أن العلاقة العثمانية المملوكية لم تدم طيبة لوقت طويل، فسرعان ما تدهورت العلاقة بينهما خاصة مع وصول سليم الأول إلى حكم الدولة العثمانية والذي بلغ طموحه حدًا غير منظور، وأصبح كل من العثمانيين بقيادة سليم الأول، والمماليك بقيادة قانصوه الغوري على يقين بان لا بقاء للاثنين معًا ولابد لأحدهما من السيطرة والتفوق.

بات كل طرف يتصيد الأخطاء للآخر، ومن الواضح أن سليم الأول كان أكثر حنكة وأعلى تجهيزًا من غريمه، واشتعلت الأمور بينهما خاصة عند رفض المماليك تسليم بعض الأمراء العثمانيين المعارضين الفارين إلى أراضيها كما أن سليم الأول أراد بسط نفوذه على مصر قلب العالم الإسلامي مما يتيح له السيطرة على الحجاز ليصبح الحامي الوحيد لرعاياه في العالم الإسلامي.

قامت الدولة العثمانية بضم إمارات جديدة لنفوذها منها ديار بكر وذي القادر وغيرها، وكان منها ما هو تحت حكم دولة المماليك، مما يشير إلى دق ناقوس الحرب بين الدولتين.

أخذ قانصوه الغوري المملوكي أهبة الاستعداد والمبادرة للمواجهة الحتمية فحرك قواته قاصدًا الأناضول.

لم تبق إلَّا ذريعة التصادم كي يجد سليم الأول سببا لاقتحام حدود الدولة المملوكية، فتظاهر بانه متجه نحو الشرق إلى فارس وأعلن أن قانصوه قد منعه.

على اي حال كان الصدام في الشام، ودارت معركة عند مرج دابق 1516م واستطاع سليم الأول الانتصار، وقتل قانصوه الغوري تحت أرجل خيل المماليك، وترتب على ذلك استيلاء العثمانيون على كل حلب وحماة وحمص ثم دمشق، فأصبحت الشام كلها ولاية عثمانية.

بايع المماليك طومان باي سلطانًا على مصر بعد مقتل قانصوه الغوري، والذي اطمأن إلى الصحراء الشاسعة التي تفصل سليم الأول عنه، لكن ما لبثت أن وصلت إليه الأخبار بان سليم الأول قد استولى على غزة وانحرف بجيشه جنوبًا مخترقًا صحراء سيناء.

التقت جيوش المماليك مع العثمانيين عند الريدانية قرب صحراء العباسية، وانتصر كذلك سليم الأول في هذه المعركة، ثم أعدم طومان باي.

كانت النتائج المترتبة على استيلاء العثمانيون على مصر والشام في غاية الأهمية، اذ تغير تاريخ المنطقة، وأثرت على تاريخ العالم كله.

تبلورت أهم هذه النتائج في أن مصر تحولت من دولة كبرى في عصر المماليك تبسط نفوذها عما حولها من أقاليم إلى مجرد ولاية عثمانية كسائر الولايات العثمانية، كما أن خلافة العالم الإسلامي، وزعامته الدينية والسياسية انتقلت إلى الدولة العثمانية، وأصبح سليم الأول الحامي الوحيد للحرمين الشريفين ولجميع رعاياه في العالم الإسلامي.

.